إلى القرآن الكريم

سورة القيامة

كانت عقيدة البعث من أبعد ما جاء به النبي ﷺ في نظر القوم وقد قوبلت منهم بشدة الإنكار المصبوغ بألوان الاستهزاء والسخرية، وكثيرًا ما كانوا يلقون بكلمات يزعمون أنها براهين تحيل وجودها، وتمنع التصديق بها: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (الإسراء: ٤٩) ﴿مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨)، و﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٤٨)



الشيخ/ محمود شلتوت (*)

وكان القرآن يلاحقهم في ذلك بإنذاراته المتكررة، وتأكيداته المتعددة، وبراهينه الحية الواضحة، حتى لقد جاء فيه جملة سور سميت بأسمائها وأسماء مقدماتها وأهوالها، وكانت عقيدة البعث أبرز ما عُنيت بتأكيده هذه السور، ففيه الواقعة، والغاشية، والحاقة، والقارعة، وفيه التكوير، والانفطار، والانشقاق، والزلزلة، ولا نكاد نجد بعد ذلك سورة من القرآن إلا قد عرضت لتلك العقيدة في ناحية من نواحيها.

ثمرة الإيمان بالجزاء:

والواقع أن الإيمان بالجزاء أقوى ما يغرس في النفس الإيمان بالحق، والإيمان بالفضائل، ويبعث فيها داعية الخير وطاردة الشر، وهذه سورة القيامة تجيء بعد سورة المدثر التي سجلت على المجرمين ما سيكون من اعترافهم يوم البعث على أنفسهم بالكفر والجحود، فتؤكد أمر القيامة، وأن تحققها في وقتها الذي يعلمه الله، أمر بَيِّن لا يحتاج إلى قسم:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾

(القيامة: ١، ٢)

وإذا كان من سنة الله في القرآن أنه لا يقسم في موضع الحاجة إلى القسم إلا بما عظُم خطره في مخلوقاته، ودلت العبارة على أنَّ القيامة لا يُحتاج في ثبوتها إلى قسم بها عليها، ولا بالنفس اللوامة عليها - كانٍ في ذلك

(*) شيخ الأزهر الأسبق.

إرشاد إلى أن القيامة وكذا النفس اللوامة من أعظم مخلوقاته خطرًا، وأقواها أثرًا، وأظهرها وجودًا، وفي هذا تقرير لتحققها ووجودها.

النفس اللوامة:

وفي ضم القَسم بالنفس اللوامة إلى القَسم بيوم القيامة إرشاد آخر إلى مكانة هذه النفس التي لا تترك صحابها عند درجة يُلام عليها؛ بل لا تتركه عند درجة فوقها درجات من الكمال، فهي على الدوام تؤنبه على الدرجات الدنيا، وتدفعه إلى الدرجات العلا، حتى يعتلي أشرف المنازل في هذا اليوم الخطير.

إبطال دواعي الإنكار:

وبعد هذا الاستدلال المملوء بألوان من التأكيدات ليوم القيامة، تأخذ السورة في إبراز ما احتوت عليه نفس الإنسان الجاحد من الظنون والأوهام التي زينت له الإنكار والجحود: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ (القيامة: ٣) ثم تقذف هذا الحسبان الكاذب بما يقتلعه من جذوره: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ (القيامة: ٤). قادرين على جمع عظامه، وإعادة تركيبه إلى آخر ما يبلغ به حد الكمال الخلقي، وهو تسوية البنان والأطراف.

ثم تُبرز السورة شأنًا آخر -كان له أثره في إنكار البعث والقيامة- غير ظن العجز عن الإعادة: تغلبت على الإنسان شهوته، واندفع بها في لذته فنسي البعث بل وأنكره؛ ليفك نفسه من قيوده فيكون حرًّا طليقًا فيما يشتهي: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ (القيامة: ٥). فلم ينكره نزولًا عن برهان، وإنما هو محاولة التفلت من سلطان التكاليف والمؤاخذة، ولقد أبعد في ذلك حتى سأل سؤال المستهزئين: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (القيامة: ٦) وهنا تصف له الآيات ما سينزل به من الأهوال التي تحيط به، والتي لا يجد له منها ملجأ ينقذه ويخلصه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ (القيامة: ٧-١٢)

وهنا تقدم له صحف أعماله ونياته فيُنبَّأ بما قدم وأخر؛ بل وتكون نفسه بصيرة وشاهدة عليه، وعندئذ يحاول أن يخلص من صحيفته، فيعجل بقراءتها لتطوى ويفرغ من حسابه وموقف خزيه، فيعلن بأن الأمر في ذلك ليس إليه وإنما هو إلى الله صاحب الشأن في عرض الأعمال وإظهار السيئات: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ (القيامة: ١٦، ١٧). ثم تبرز السورة من نفس الإنسان داعيًا آخر لإنكار البعث، وهو محبة الدنيا التي تطمس عليه جانب الآخرة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ (القيامة: ٢٠، ٢١)

وهنا تعرض السورة أن الناس في هذا الموقف: أبرار، وفجار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ

﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢- ٢٥) ثم تحذرهم الركون إلى الدنيا وتصور لهم أهوال الاحتضار حينما تبلغ الروح الحلقوم، ويعجز الطبيب والكاهن، ويرى مشهد الفراق:

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٢٩، ٣٠)، وهنا يسمع أسباب أحزانه ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾ (القيامة: ٣١ -٣٣) يختال ويتكبر.

الجزاء مقتضى الحكمة والعدل:

ثم تختم السورة بتقرير القدرة على الإعادة، وأنها من نوع القدرة على الخلق الأول، وأن الإعادة لتحديد المسئوليات، والجزاء على الأعمال أثر من آثار العناية بالإنسان وتكريمه، وأنه لا يمكن -وقد أكرمه الله ونفحه بالعقل والشرائع- أن يتركه سدى وهملاً كالعجماوات دون حساب ولا جزاء: رسم له شرائعه، ووهبه قوى العمل، وقوى التسلط على ما خلق، وأنشأه عاملًا قويًّا مفكرًا من مويهة قذرة، ثم أحاطه بعناية بما ينعم به في حياته ويحفظ له ذكراه من بعد مماته، فلا بد له إذًا من يوم يُسأل فيه عن النعيم، ويتجلى فيه بالنسبة للمحسن والمسيء فضل الله وعدله، وهو ذلكم اليوم الموعود: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾

(القيامة: ٣٦- ٤٠)

آمنت بالله العظيم..

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

